الذين لا يكون ...

قصة بقلم عايدة مطرجي ادريس

قالت وهي ترفع نحوي رأسا صغيرا تدلت تجاعيد شعره كعنقود عنب :

ـ الا تأتين معي الى المدرسة يا ماما ؟

فاجبتها بغضب : لا ، لقد علمتك الدرس جيدا ، واصبحت تعرفين كل شيء .

واضفت بلين : انت شاطرة ، وحين تعودين من المدرسة ، واري انك قد نجحت ، ساشتري لك لعبة كبيرة ، كبيرة جدا ، تضحك وتمشي وتنام ...

ولمعت عينا الطفلة التي لم تتجاوز الخامسة والنصف ،واسترسلت في اسئلة لا نهاية لها عن لون اللعبة وحجمها وعينيها وعن ضرورة شراء سرير لها ، وادوات صغيرة لتأمين شربها وطعامها ، واقترحت ان ترافقني في العشية الى السوق لشراء فستان للعبة لن تلبسها اياه الا عندما نزور بعض اقربائنا ، ثم اضافت :

ـ انني لا اريد ان تذهب الى المدرسة ، ولن اجبرها على الدرس ، ولن اضربها حتى لا ينكسر رأسها .

وصمتت لحظة قبل ان تتابع :

ـ ماما ، هل صحيح ان اللعبة التي ستشترينها ستكون مثلي ، تضحك وتمشي وتنام ، وتبكي ايضا .. ؟

وهززت برأسي ، فانتفضت الطفلة ، ثم اخذت حقيبتها وفتحت الباب تهم بالخروج ، وقبل ان تندفع خارج البيت التفتت الى الوراء وقالت لي :

ـ تعالي معي ،تعالي معي .

ونظرت الى عينيها : كان في سوادهما بريق عجيب لم استطع ان اميز ان كان نتيجة الخوف من الامتحان ام الاسترسال في الحلم اللذيذ الذي كانت تعيشه منذ لحظات .

***

كانت العاشرة الا بضع دقائق . واللعب يسوده الهدوء . لا بد لي من الانتظار قليلا . ولكن رغبة جامحة لرؤية طفلتي تدفعني الى ان اتقدم ، فادق على الباب وادخل، وابتسم للمعلمة وانا احييها ، فيشيع في الغرفة شيء من البلبلة ، وافتش بعيني على الرأس المجعد ، فلا اهتدي اليه بسهولة . ان في هذه الغرفة خمسة واربعين رأسا ربما كانت السبب في ان تحجب ذلك الذي كنت اعتقد انه سيكون فريدا ، رأس طفلتي التي تملأ عالمي ، طفلتي التي لا اجد حديثا الا عنها ، حتى في الساعات التي اخلو فيها الى نفسي ، والتي اعتبرها ملكي وحدي ، الساعات التي اخلد فيها الى الكتابة ، اجدها تعيش في نفسي، وتمتلك كياني كله ، فاذا بي اكتب عنها ، وعن احلامها وحركاتها وعن عالمها ، فانسى الموضوع الذي اردت ان اتفرغ للكتابة عنه . طفلتي هذه، كيف ، كيف لا اميزها . ؟ وفتشت بعيني ، واذا بيد صغيرة مستسلمة تمسك يدي ، فاحس بحرارة تلهب جسمي واحني رأسي ، وارفع الي الجسم الصغير ، واطبع على الخد الطري قبلة ، بينما كانت تقول :

ـ اريد ان اعود الى البيت يا ماما ، هيا ، لنشتر اللعبة ، لا اريد ان اقدم الامتحان ...

فنظرت اليها بغضب مصطنع ، ادركت هي زيفه وقلت لها :

ـ هيا ، سارافقك الى القاعة .

***

كانت الغرفة كبيرة بعض الشيء ، وقد صفت فيها طاولات صغيرة هرعت طفلتي لتجلس امام احداها بعد ان قبلتني واكدت علي بان انتظرها ، فوعدتها . وكنت على يقين بان وجودي معها يقلب وضعها النفسي ويضاعف حيويتها وحتى معلوماتها . كنت اشرف على تعليمها ، وكنت اقضي وقتا طويلا ، وانا اتلبس شخصيتها ، لارسم حرفا لم يسبق لي ان كتبته الاف المرات حتى اصبحت طفلتي تتقن رسمه خيرا مني ، وكنت في بعض الاحيان احس بالضيق ، وبالالم ، وبانني اهدر نفسي ، واحطمها ، فاحطم اكبر امل كنت اعيش من اجله ، قبل ان تولد لي طفلة ، وهو ان اكتب . وكان هذا الشعور يتضخم ويعمق كلما ازدادت مسؤولياتي العائلية ، وكلما احسست بحاجتي الشديدة الى الكتابة ، بعد ان انتزعتني الحياة ورمتني في خضمها فابتلعتني تجارب متعددة زاخرة ، يتفاعل فيها العالم كله ضمن اطار هذه الاسرة الذي خلته ضيقا . وكنت افكر :اية سخرية هذه ! لقد امضيت عمري كله ، وما ازال اثقف نفسي على امل ان اعود يوما فاعيش الحياة التي احسني قد خلقت لها ، ولكني ها انا اعود لاعيش حياة جديدة ، تبدأ من الصفر مع هذه الصغيرة . غير ان هذا الشعور الطاغي كان يثقل علي، في غياب طفلتي ، حتى اذا عادت الى البيت، احسست ان العالم يتبدل، وان حياتي ليست سدى . وحين خطت اول حرف بدقة ، تملكني شعور فنان انتهى من خلق رائعته . بيد ان رغبة جامحة كانت تدفعني احيانا لاتحرى بصدق وصراحة حقيقة مشاعري : ترى ، الست اخادع نفسي ؟ الست اكذب عليها ؟ الا امثل دور التضحية لابعد عن نفسي شبح عجز يتملكني ؟ سنوات مضت ، وانا اراكم الافكار والتجارب والجمل التي كنت انمقها واؤلفها على امل ان يشرق الغد فاسجلها في زخمها وحرارتها وتدفقها ، وكان يخيل لي اني استطيع ان اسجلها جاهزة كما هي ، من غير ان احتاج الى اي تعديل او تحويل ، لفرط ما عاشت واختمرت وقرأتها في نفسي وفي ضميري ؟ اكنت مخطئة في اختياري طريقا يبدو لي انه ينساب في مجرى يخالف مجرى ما سعيت اليه وحلمت به ؟ ولكن لو لم اختر ذلك الطريق ، اكانت لدي تلك التجارب التي نراها صغيرة ، تافهة ، ولكنها تشكل حياتنا كلها ؟ اصحيح انني لم اكن احلم ايضا بحبيب يشاركني قصة حب ، تلك التي كنت اقضي الساعات وانا اتابع ابطالها بشغف وترقب وحنين وكأنني انا البطلة الحقيقية فيها ؟ اصحيح انني لم اكن احلم بجسد صغير يمتص كياني ليحيا ؟ نحن اللواتي كنا آلهات الخصب والتدفق والحياة ، هل نستطيع ان نفدو شياطين الجفاف والجشع والموت ؟ وابرر مسلكي ، واصب نقمتي واحولها على هذا المجتمع الذي افسح لنا مجال العلم ونحن فتيات ، ثم حرمنا من المساعدة حين تلقفتنا متطلبات الاسرة التي تبتلع معظم ساعات يومنا؟

ـ اوه ، ماذا تنتظرين ؟ لا بد ان لك اختا او اخا يتقدم الى شهادة البكالوريا . ولكنك انت الصغيرة ، اليس كذلك على ما اذكر ؟ ان الاسئلة في غاية الصعوبة ، ولا بد ان يرسب الكثيرون .

ـ لا . انني انتظر طفلتي ، التي هي في هذه الغرفة ، وليس في تلك القاعة الكبيرة .

ـ كم عمرها ؟

ـ خمس سنوات ونصف ! انها تتقدم لامتحانات المدرسة .

ــ اوه ! وهل انت تهتمين لذلك ؟ انها صغيرة .

***

لقد مضى عليك ساعة وانت ترقبين هنا ، امام هذا الباب . هــل تسمعين شيئا ؟ ان الاسئلة في غاية الصعوبة .

ها هو سمير . انهقادم . ماذا يا حبيبي الم تحسن الاجابة ؟ .. سامي .. ماذا . هل فعلتجيدا ؟ .. هل تذكرت الرسم .. سليم ، تعال ... ماذا ، هلاجبتَ ؟ تسالينني لماذا ابكي ؟ . لا بد انه راسب ، ومعنى ذلك ،انه لن يعمل في الصيف ، ليؤمن قسطه المدرسي الليلي للسنة القادمة ، ولربما توقف .. لا بأس ، يا جاني ، سنؤمن لك معلما في الصيف يدرسك ،لاتزعج نفسك ، ان الحر شديد ، ونريد ان نصعد الى الجبل . جاني ، المهم الا تحزن ...

ــ اما تزالينهنا ؟ . انني لا اسمع شيئا وسط هذا الضجيجكله، فكيف انت تسمعين ؟ انت تعبة، والصغيرة،صغيرة ... تعاليىنجلسهناك.

لا . انني اسمع ، ولست متعبة . ان طفلتي تحسن كتابة هــذه الكلمة ، يا الهي ، كن معها ، ربما .. ربما كان هذا الحرف صعبا عليها، انها غالبا ما تكتبه معكوسا . اه ، ليس في هذا المكان ما يبعد عنــي لفح الشمس ، فالارضمن تحتي ترشح لهبا . يكاد جسمي ان يحترق ، ويكاد رأسي ان ينفجر انني احس صدغي ينبضان ويضربان كمطرقةحادة، انني لا اسمع الا صوتهما ، ثم يهدآن . ويلفني الصمت ، والترقب،انني كتلة من الصمت ، ولقد بت اسمع اصداءه ، سماعي صوت المعلمــة هذا الدقيق . انه يتسلل الىنفسي ، وها انا احلله . ماذا ان لم تنجح؟ صحيح انها صغيرةولكن سنة ستفوتها ، وستحسب من عمرها . السنا عبيد الحساب والاعوام ؟ انني سعيدة . فاكثر ما املت المعلمة تتقنه ابنتي ، ان الهواء ليس لاذع الحرارة ، بل ان الخضرة المنتشرة فــي مختلف ارجاء الحديقة تبعث بعض الرطوبة . لقد انتهى الامتحــان . وباستطاعتي ان اقفز المسافات فاشتري اجمل لعبة واعود بها قبل ان تخرج طفلتي من القاعة فارميها بين ذراعيها . هكذا تعطي المفاجاةللهدية رونقا ، ولكن الافضل ان انتظرها . لماذا لا ادعها هي تختار ؟ الســت اريد ان اساعدها على انتكون لنفسها شخصية ؟ سانتظرها .

واحنيت رأسي ، وترددت ، هل افقد رزانتي واتلصص لاراها ؟ ان قلبي ينبض بشدة . انني حائرة مضطربة . وانني اهم كصبي صغير لاتلصص بعين واحدة من ثقب الباب بينما تغرق الاخرى في ظــلام دامس .. من هذا الثقب الخرب ينبعث عالم زاخر بمجهود غريب ،فكيف تستطيع ان تدير نظراتها بتلك السرعة هنا ، وهناك . عيني الوحيدةهل تخونني ؟ ان الاولاد جميعهم ، يكتبون ، بايد دقيقة ، متعثرة . ان معظم الاوراققد لطخها السواد. عينيتعثر على طفلتي.. ها هي.. وسطالجميع .. انهم مشغولون وهي جامدة لاتتحرك ، الايدي كلها في حركة،وبداها على ورقة ما تزال بيضاء . وفجاة . تضيع القاعة كلها في الظلام ، فــلا ارى بعد سوى وجه طفلتي: انه وحده ، ينسلخ عن هذا المكانليحجب كل شيء . ذلك الوجه الصغير الذي يكبر ويكبر حتى يحتوي الغــرفة كلها . في اي اجواء ،انت يا ابنتي تحلقين ؟ ماذا ، هل تصلبت تلـك الاصابع الرخصة التي كانتحتىالامس تبدع احرفا جميلة ؟ ولكن لا . انها تتحرك ، تلك الاصابع ، وتتجمع . الكي تكتبي يا طفلتي ؟ بل انها تلامس وتداعب ، وتضغط فماذا تحملين بها ؟ عيناك ، بم تحدقان ؟ يا الهي ، بت لا اراك . انما احسك رشيقة خفيفة تحومين وترقصين فوق تلك القاعة ، انني ارى نفسي عالمك هذا ، عرفته امك من قبلــك ، يا حبيبتي ، وها هي تعيشه مجسدا اليوم . ولقد كاد هذا العالـم ان يحطمها ... انني احس اللحظة بشيء ما يتحطم في نفسي ، وبانالعالم من حولي ينهار فيحدث انهياره طنينا يدوخني .

واردت ان ادفع الباب وافتح عيني للنور . ان عينا واحدةلا يمكن ان ترى الحقيقة ، ولكنني دست على حشرة فلطخ دمها الارض ، ثــم تهاويت ، فاقتعدت حجرا كامرأة مجنونة !

حلمي القديم .. وحلمي الجديد ، لماذا يتعانقان ليتآمرا علي ؟

***

لا ادري اانا التي اخذت يدها ام هي التي اخذت يدي . ولكــن الذي ادري انها نظرت الي نظرة واحدة ثم اغضت . واشرق فــي نفسي امل صغير حين خطر لي انها ، بالرغم من كل شيء ، ربما كانت قــد كتبت ما طلب منها ان تكتب : ولكن هذا الامل سرعان ما خبا حين تمثلتها من جديد وهي ممسكة القلم دون ان تكتب به .. وصمتها هذا الان ،الا يعني انها قد ادركت انيعرفت تقصيرها ؟ واحسست انني لا اطيق ان تكون فريسة هذا الشعور بالذنب وان ذلك لا بد ان ينعكس عليها اسى وندما وتبكيتا .

وضغطت على يدها وانا اقول وقد احسست بخطاي تتسارع .

ــ تعالي ، يا ماما ــ معليش ــ ساشتري لك لعبة .

ورددت في نفسي : «ليتحقق حلمك ، انت ، يا حبيبتي» وادهشني الا ترفع الي عينيها ولا يرتسم على وجهها ظل من فرح . ولكن ذلك لم يزدني الا تصميما علىضرورة ادخال البهجة الى نفسها .

وبعد ان خرجنا من حانوت الالعاب وبيدها صندوق اللعبة وعلــى شفتيها ذلك الصمت الذي ظننت انه سيصبح ابديا ، احسست موجة من الحزن تهطل في قلبي . مثلي انا ، اخفقت طفلتي . انها منطينتي، انني لاحسها تتقلص رويدا رويدا ، ويخيل الي انها تهم بان تدخل من جديد احشائي وتمتزج بي . انني انا طفلتي ، وطفلتي هي اياي .

ومع ذلك .. ومع ذلك... فلا بد ان يعود اليها مرحها حين تفتح الان علبة اللعبة في غرفتها وتجلس اليها تحكي لها حكاياتها وتحقــق بها حلمها .

وفي البيت دلفت الى المطبخ لاهيىء الغداء ، بعد ان قلت لطفلتي ان تأخذ لعبتها وتلاعبها وتربت على ظهرها حتى تنام .

وناديتها حين فرغت من اعداد الطعام ، فلم تجب . وكررت النداء فلم اسمع صوتها .

وحين دخلت غرفتها وجدتها تبكي بصوت خافت ، واللعبة عنــد قدميها محطمة .

وظللت لحظاتصامتة ، ثم انحنيت فوقها ووضعت يدي علــى رأسها ، وسألتها في حنان :

ــ ولكن لماذا كسرتها يا ماما ؟

فرفعت الي عينيها وقالت:

ــ انها لم تبك يا ماما ، فلماذا ، لماذا لم تبك ؟

واجهشت الطفلة من جديد في البكاء .

عايدة مطرجي ادريس